المنهج الفاروقي للعمران الإسلامي

علي الثويني *
احمد ابو الهيجاء

يرصد المتابع للشأن الثقافي والحضاري والعمراني الإسلامي شحة ما ينشأ من أوابد وكساد في تأسيس المدائن الجديدة المتماشي مع إيقاع المتغيرات العصرية والمتماهي مع تطور وسائل النقل والمستوعب للزيادات السكانية في حالة من تصاعد أنساق التواصل والاتصال بين الثقافات. ناهيك عن تطور علوم التخطيط الحضري الذي أمسى دالة علمية لم تعد متداخلة مشيميا مع العمارة أو من جراء البحبوبحة النسبية لبعض المجتمعات الإسلامية والعربية التي مكثت تجترّ من تراثها وتتداول ما مكث من مدائنها. فجل الأوابد والحواضر والتجمعات السكانية التي نسكنها اليوم كانت قد جاءت من عمق عهود التراث أكثر من الحداثة إلا ما ندر. وفي ذلك سياق بحثي آخر.

مازلنا نهيم شغفا بتلك الروحية التي أنشأت تلك المدائن. فثمة الكثير من الجدوى ناهيك عن الإغواء والجمال ما يلفها بما يعكس لبابة وعقلانية وواقعية بيئية تسعى لها منظومات الفكر اليوم. وعسى أن يشكل مسعى دراسة الظاهرة العمرانية التراثية بؤرة مفاهيم أو منهج استنارة يتداولها مخططو المدن في زماننا الحاضر. كل ذلك يشجعنا على سبر أغوار جذور الظاهرة العمرانية في التاريخ البشري التي تعد إحدى عطاءات ميراث الشرق القديم الذي مكثنا سدنته المكانيين بوعي أو بدونه. فما زالت أريحا الشامية الفلسطينية تشكل أولى مستعمرات تجمع معشر البشر في الدنيا حتى اليوم. وتؤرخ لحوالي تسعة آلاف عام قبل الميلاد. ثم نشأت مدن الرافدين بما دعي ثورة المدن (النامات) ابتداء من حوالي العام 3600 ق.م. وتصاعد دفق الأداء العمراني في نفس البيئة الثقافية. حتى وطأ الإسلام الحضاري الذي سار بها قدما إلى مصاف جعلت المدينة الإسلامية إحدى دالات الفكر الإسلامي وثوابته وعلامات التأثير والريادة لكثير من معطيات علوم العمران. فهي المعبر الأكثر واقعية للفكر الإسلامي. أكثر حتى من العمارة نفسها. وفي طرقنا للمنهج قبل المنتج يوصلنا إلى مكامن الأسباب

* جامعة فيلادلفيا– الأردن

التي تداعت إلى أن تنتج نماذج من المدن الإسلامية، ويدلنا البحث والتمحيص في الجذور الأولى عن شخصية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اضطلع واختص في المشروع التأسيسي لنشوء العمران الإسلامي. ويمكن أن تشكل سيرته من القدس (إيليا) التاريخي و(عهدته) لأهلها بؤرة ضوء ومدعاة دراسة. وقد أنشأت مدائن الكوفة والبصرة(638-636م) أول حاضرتين إسلاميتين رسم من خلالها ملامح الخط الفكري الإسلامي. ونقر بأن ذلك لم يات من فراغ بل جاء مسترسلا من سليقة محلية شغوفة بالتمدن والحال، وداحضة رافضة للبداوة والترحال. وهذا هو الجوهر الفرد لتوجه الإسلام بوصفه منهجا يدعو الى التناغم بين الجانبين الروحي والمادي في الحياة، رغم ما ينسبه إليه أعداؤه زورا وغلا، وبأنه كان صوتا للبداوة العربية. لابد هنا من قراءة متأنية لذات الخليفة الراشد الذي غبن في سياقات ومتاهات تدوين التأريخ، ولم تنصفه البحوث بهذا الشأن في الثقافة العربية والإسلامية، ولاسيما في حداثتنا التي مازالت تأن من سطوة التوجه المملى لتكريس المركزية الغربية، ولا يلام الغرب أن يغض الطرف عن تلك الإيضاءات الساطعة في ثنايا تاريخنا. وهذا ما يحتاج الى إعادة قراءة ومنهج تحليل، لاتلتبس فيه عين الرضا والانحياز والمحاباة. ويأتي ذلك سعيا لإنشاء منظومة فكرية تستند على منطلقات الفكر التي تعين في راهننا لإنشاء منهج عمراني ومعماري ينبع من حاجتنا وفكرنا المحلي، مستثمرة بعقل ودون تفريط بمعطيات زماننا.

لقد أرسى الخليفة عمر بن الخطاب قواعد مهمه جداً في تنظيم علاقة الإنسان بأخيه والجماعة بالجماعة، وممارساته للتماهي والإنسجام التام مع البيئات الطبيعية والاجتماعية في الخلق العمراني والمعماري. ومن مناقب الرجل التي لاحصر لها مثلا أنه أول من طبق نظام الضمان الاجتماعي وحدد الحقوق والواجبات في المجتمع بكافة مكوناته واختلافاته الدينية، قبل النظم الحديثة التي نتشدق بأنها تحمل ريادات تنظيمية، وربما كان دالة ريادية إسلاميا لما دعي تباعا (المدينة الفاضلة).

وثمة حاجة اليوم لعملية تحليل تحمل في ثناياها المنطق العلمي للأحداث التي اتصلت بالخليفة عمر وأثره في ممارسات الإسلام الحضاري وتأثره وفهمه لمبادئ الدين الحنيف التي احتاجت مثل كل المنطلقات النظرية في التأريخ إلى من يجسدها ويضعها على المحك والملموس، ولاسيما في إطار بناء وتطور المدينة الإسلامية التي تجسدت تباعا في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد ترك الخليفة الراشد وراءَه كماً كبيرا من الأخبار بما يتعلق بشجون العمران والعمارة بالرغم من قصر الفترة التي قضاها في الحكم، حيث لم تكن أكثر من عشر سنين وستة أشهر وخمسة أيام، وهي فترة قصيرة نسبيا لو قورنت بكم المنجزات التي أرست للإسلام صفة وثقلا، وأمست قواعد ومقاييس أخلاقية لا مثيل لها في تاريخ البشرية، وحضرت دون ريب لأزمنة الحاضر المثقفة. وفيما يلي ذكر لبعض المواقف التي رسمت ملامح تطبيقية رسخت منهج التعامل التنظيمي في الاجتماع والعمران، وأهمها:

1. احترام معتقدات الإنسان ولاسيما غير المسلم، من خلال فحوى العهدة العمرية

لقد كانت أولى مناقبه ما قرأناه في «عهدته» لأهل القدس (إيليا) وكيف آمنهَم على دينهم ومعابدهم وديارهم. ونلمس ذروة السمو والنظرة المستقبلية حينما رفض الصلاة في صحن كنيسة القيامة، وأخبر الشماس (لو صليت داخل الكنيسة لأخذه المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر). ثم قام عمر وبنى مسجدا من الخشب في موضع المعبد الدارس يتسع لثلاثة آلاف مصل. وبالتالي فقد رسخ الخليفة مبدأ منع هدم الكنائس، أو المساس بها بسوء.

2. المساواة بين الناس كافة والعدل فيما بينهم

لقد أطلق الخليفة الراشد في القدس مقوَلته المشهورة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهُم أحرارا) عندما التقى مظالم أحد الأهالي شاكيا له مجموعة من المسلمين أكلوا من كرم عنبه وكان عذرُهم أن ليس لديهم نقود، فدفع حسابَهم وأنبَهم.

3. إرساء عوامل الوحدة في المجتمع

لقد أرسى عمر سنة المساجد الجامعة في المدن، حيث أورد المقريزي في خططه أنه «لما فتح عمر البلدان، كتب الى أبي موسى (الأشعري) وهو على البصرة يأمره بأن يتخذ مسجدا للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك، وكتب إلى أمراء الأجناد بالشام أن لا يتبددوا إلى القرى وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا ولا تتخذ القبائلُ مساجد فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده». وبصدد نزعته الزاهدة المباشرة، روى البخاري في صحيحه أن عمر أمر ببناء مسجد وقال: «أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس».

وهذا سبق في إقرار الوظيفة قبل الهيئة تماهيا مع المبدأ الفلسفي (المضمون يسبق الشكل) الذي تبنته العمارة الحديثة أبتداء من المدرسة العضوية في نهايات القرن التاسع عشر على يد الأمريكيين سوليفان وفرانك لويد رايت. وهنا نثبت أن الخليفة عمر لم يرفض الجمال والفنون، بقدر تصنيفه للأولويات التي تكون فيها الجدوى والوظيفة في المبنى قبل إسباغ الجمال على جنباته.

لقد ركز الخليفة على إقامة المساجد الجامعة في المدن وليس القرى بما يكرس الحس الحضري الذي تكتنفه حياة المدن على عكس القرى التي تبقى متداخلة مع حياة البداوة التي رفضها الدين الحنيف. وحث على عدم التكتل في أحياء تشمل قبائل وحمائل وأقواما تؤم مساجد الأحياء الخاصة بها، بما يلغي مفهوم (الأمة) ومبدأ «تعارفوا». وهنا مفتاح للكثير من السجالات بين دعاة صفاء الدماء للأمة الذي هو معاكس لما دعى له الدين في التفريق بين الناس من خلال الإيمان والكفر أو في حقيقته ممارسة المكارم أو عدمها فقط وليس تصنيف آخر.

4. العدل في توزيع الغنائم

كان عمر عادلا في توزيع غنائم الفتح ولاسيما ما يتعلق بالأرض والعقار، وقال القاضي أبو يعلى: «إن أرضَ السواد صيرها عمر وقفا بنفس الفتح والأرض لا تصير وقفا حتى يقفَها الإمام، فعلى هذا يجوز له بيعُها إذا رأى بيعَها أصلح لبيت مال المسلمين ويكون ثمنهُا مصروفا في عموم المصالح». وقد جاء ذلك معاكسا مثلا لمقولة والي العراق في زمن الخليفة الراشد عثمان: بأن (السواد بستان قريش).

5.تأسيس مبادئ الضمان الاجتماعي

لقد خصص عمر للعاجزين وكبار السن من أهل الكتاب مبلغا ماليا يغطي حاجاتهم المعيشية، بعد أن كان قد رفع عن كاهلهم دفع الجزية، وهذا ما طبقه الغرب على الجميع من عقود قليلة وتخلى عنه المسلمون، الذي نجزم بأنهم الأولى بممارسته.

6.استحداث نظام الرقابة والمحاسبة لتجنب الفساد والغش في البنيان

استحدث الخليفة على المدائن الإسلامية منصب (المحتسب)، وهو شخص يكرس حالة الانضباط الأخلاقي في المدينة الإسلامية من خلال مراقبة الأسواق ومنع الغش والتدليس في البناء والمضاربات المجردة من النزاهة، كما هي أعمال الربا أو تحصيل الزكاة والضرائب، وصنفت إحدى أعمال العمل بالمعروف والنهي عن المنكر. ذكر القلقشندي (ت821هـ1418-م) في (صبح الأعشى) نقلا عن الماوردي في (الأحكام السلطانية): «إن اسم المحتسب مشتق من قولهم (حسبك) بمعنى أكفف وسمي بذلك لأنه يكفي الناس مؤونة من يبخسهم حَقهم».

7. إرساء حرية الاختيار لأهل التخصص وتحديد منهج التقشف والزهد في البناء

أمر سعد بن أبي وقاص بتأسيس الكوفة في 23 كانون الثاني (يناير) من عام(16هـ- 638م).وقد كانت بيوتهُا مبنية في البداية من مادة القصب نظرا لوفرتها في البيئة العراقية، وكذلك سهولة تنفيذ البناءات بها بما يتوفر من خبرة محلية ورثها العراقيون منذ السومريين ومن سبقهم. وقد استخار القادة الخليفة عمر قبل بناء المدينة، فسألهم وما القصب ؟ فأجابوه : (العكرش إذا روى قصب فصار قصبا) فأعطاهم حرية الاختيار بالرغم من عدم معرفة الفاتحين به. لكن حدث حريق في الكوفة والبصرة بعد عام واحد ألم بها وأحالها إلى رماد مما استدعى البناء بالطين (اللبن) بعد نصيحة الخليفة: «فعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة».

أما الزهد فورد في أمره بعدم الإفراط في التزويق بقوله (وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس)، وأن يوظف المصروف الزائد في أمور تصب في فائدة العموم، وكذلك تحاشي ما يشغل ناظر الناس ويقلل حالة الخشوع لديهم، الذي يبقى غاية ومبتغى في فضاءات المساجد.

وقد ترك الخليفة أيضاً حرية اختيار خامات البناء المتوفرة في بيئة الموقع، بما يؤكد موقف الإسلام في احترام ثابت الثقافة وميزة البيئات الطبيعية التي تمكث المصدر السخي لمواد البناء الوافرة، وعدم وجوب جلبها مما يصب في منهج الزهد الإسلامي في البنيان. ويتعدى الأمر إلى الجانب الفلسفي حينما تتحول الخامة المبتذلة في يد صانعها الحاذق الى قطعة إبداعية، تقليدا للخالق حينما صنع الإنسان من الطين المهين وسما به لأحسن تكوين. وهو بحد ذاته دحض لنزعة البهرج واختيار نفيس المواد بغرض الاختيال والفخر. وقد تداعى الأمر بأن الفنان المسلم حاول أن يحاكي فاخر الرخام بخامة الجص وبريق المعدن النفيس بالفخار ذي البريق المعدني.

وتبين الكثير من الأحداث تواضع الفاروق وعدم تكبره أو مكابرته، وتأكيده أن لا ضير في عدم فقهه بالبناء وأعرافه وذلك بسؤاله عن القصب وعدم معرفته به. وهذا يرسم صورة جليه عن طبيعة الحاكم الذي لا ينافس العارفين بأمورهم.

8. إرساء مبدأ التواصل المباشر بين الحاكم والمحكوم

أمسى المسجد أولَ ما اختط في مركز مدينة الكوفة، وحاذته دارُ الإمارة من جهة القبلة التي كانت بينها وبين الجامع فجوةٌ سرعان ما احتوتها. وتجسد في رسالة الخليفة عمر إلى سعد حينما قال له : «بلغني أنك بنيتَ قصرا اتخَذتهُ حصنا ويسمى قصرَ سعد وجعلتَ بينك وبين الناس بابا فليس بقصرك ولكنه قصرَ الخبال، انزل منه منزلا مما يلي بيوتَ الأموال وأغلقهُ ولا تجعل على القصر بابا يمنعُ الناسَ من دخوله».

وقد اتبع الخليفة منهجاً حازماً حيال سعد بن أبي وقاص ونأيه عن المحاباة والمداهنة، عندما وبَخه وذكره بمنهج الله، فحواه التواضع والإيثار وخدمة العباد وأن التسلط على الناس لا يعني اعتزالهم وبناء الحصون عنهم، وإنما تلمس حاجاتهم وتقديم الخدمة لهم.

9. تكريس الوظيفية المعمارية لخدمة الصالح العام

أمر الخليفة بلصق دار الإمارة بالجامع وتجسيد مفهوم (التعددية الوظيفية) المكرس للاقتصاد بالمساحة والمصروف والحركة، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة بأن المجمعات الوظيفية يمكن أن تقتصد بثلث مصروفات البناء.

10. الحث على عمارة الأرض

وذلك من خلال التنمية الاقتصادية، واستثمار موارد الأرض، حيث يرد في رسالة الخليفة لبلال بن حارث المزني عندما توانى عن استثمار أرضه قوله: «أن رسول الله عليه السلام لم يَقطعُك لتحتجزَه عن الناس، وإنما أقطعَك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته، ورد الباقي». وبذلك حث عمر على الإنتاج والعمل الجاد واعتبرها ميزانا أخلاقيا.

11. تحديد بعض مقاسات الشوارع واستخدام النهج العقلاني

أملى الخليفة عمر على سعد بما يتعلق بالمناهج ليكون عرض الشارع الرئيس 20م وما يليها من فروع 15م وما بين ذلك 10م والازقة 3,5م وفي القطائع 3م. وهذا المعيار أو المدلول (المودول Modul) سابق للأنظمة الوظيفية الحديثة. وكان الخليفة قد اعتمد مبدأ الحاجة دون تقتير أو تبذير في عرض الشوارع، بما يكرس توازنا معماريا دأبت له كل تيارات العمارة الحديثة. وقد جاء الإرشاد بتحديد الارتفاعات وعدد الحجرات لكل دار، بما يصب في المنحى العقلاني للبناء.

12. استحداث أعمال المسح والتوثيق

يعد الخليفة عمر أول من أوجد القياس والتدوين والأرشفة لأراضي الدولة في الإسلام، ومسحها وتعيين حدودها، وحفظها في سجلات تشرف عليها الدولة، وتتصرف بها بحذر كونها جزءا من المال العام المشاع. وقد استحدث مقاسا خاصا بالدولة سمي فيما بعد (الذراع العمري)، الذي استعمل قرنا من الزمان من بعده وهو بحدود 55سم.

13. الحرص على السلامة العامة

سعى الخليفة إلى الأمن والأمان على أرواح المسلمين من خلال الاهتمام بتفاصيل البناء ودعوته المسيرين إلى (تعريض الحيطان وإطالة السمك والتقريب بين الخشب)، وهي مبادئ جوهرية في الهياكل الإنشائية.

14. تطوير معلم الخانات (محطات الاستراحة للمسافرين)

أهتم الخليفة عمر بما وهبه الله للشرق القديم من موقع وسطي جعل خطوط التجارة تمر من خلاله وهي خطوط الحرير والبخور والفرو والملح. وهذا ما استوجب اهتمامه بمحطات الاستراحة للمسافرين على طرق القوافل في عهود الإسلام تميزا عما سبقها من اهتمام. ويمكن أن يكون ذلك طفرة في بناء معلم الخانات(التيم أو السمسرة أو الكرفان سراي) وهي بيوت القوافل في العمارة الإسلامية. وكانت هذه المراكز تشتمل على كل الخدمات التي توفر للمسافر الراحة ومقتضيات الحاجة. وقد استحدث كذلك أول منشأ لإقامة الوفود القادمة، والزائرين الرسميين بما نسميه اليوم (دار الضيافة) بالرغم من أن الخليفة عاش وقاد الأمة من بيت زاهد، مخالفا سيرة الأباطرة والأكاسرة الذين سبقوه للملك في أقطار الشرق القديم.

كل ذلك يدعو إلى وقفة في ضبط آليات ثبوت الفكر وتطوره العضوي دون المساس بالجوهر. والأمر برأينا مرهون بالقيم والممارسة الإنسانية في العمران والعمارة. وهنا نقف على خير تعريف للتراث المعماري بأنه ممارسة أخلاقية في مناخات التاريخ قبل أن يكون أشكالا نحاكيها ونسبغها على مبانينا. ونقول لا خير لنا في إحياء تراث كنهه الطغيان والظلم ونأي عن المكارم. ودعوانا أن يسلك المعمار طريقه إلى المضامين الصادقة الإنسانية، التي ستنتج له أشكالا جميلة دون عناء.